وأطال في وصف الاباعد والمنازل والمآكل والمشارب والملاهي ومدح الفلاح المصري على تدينهِ وتسليمهِ امرهُ لخالقهِ

الطبيعة اكبر استاذ

لقد غلب على الناس ان يطلقوا لفظ الطبيعة على جميع الموجودات المادية من كوائن الارض والسماء سواء كانت اعيان البسائط والمركبات كالحيوان والجماد والنبات وعناصر الهواء والماء او مظاهرها المختلفة وصورها العديدة كالجبال والوهاد والرياض والفياض والبحار والانهار او ظواهرها الجوية كالندى والبخار والثلج والامطار والشفق والسحاب وقواتها العامة كالنور والحرارة والكهربائية الى ما يطول ذكرهُ ويلحق بهِ من الاصول والفروع والفصول والابواب

وقد توسَّعوا في اطلاق الطبيعة ايضاً على شرائع الكوان المادّي مما استقرت اجناسهُ وانواعهُ وميزت صنوفهُ فجُمعت مسائلهُ طوائف استقلَّت ابحاثها وتعينت حدودها فأُدرج كل منها في فنّ مخصوص او علم قائم بنفسهِ على ما هو مشهور يجمعها قولك العلم الطبيعي والطبيعيات

غير ان للطبيعة عند المحققين معنى اشمل واكمل يريدون بهِ ان الطبيعة هي مجموع حقائق الوجود من اعيان وصور ومحسوس ومعقول وجوهر وعرض فتشمل النواميس المادية والشرائع الادبية فقالوا ان الطبيعة بهذا المعنى هي مُربي الانسان الاوحد ومرقاة كماله على الاطلاق . فهي منهُ الامُّ الرؤوم والمرشد الخبير والاستاذ الاكبر والمهذب الحكيم حتى اذا حُرمَ المربي ربّتهُ او عدمَ المؤدب أدَّبتهُ

ولما كان ما تُلقي الينا الطبيعة من دروسها بلسان شرائعها ووقائعها منحصرًا في دائرتي التأديب والتهذيب اقتصرنا هذه المرة على بيان طرف من القسم الاول نريد بهِ تأديب الطبيعة وعقابها متبعين في ادراج شواهدهِ الحسية والمعنوية معنى الطبيعة الاخير الشامل لكليهما معًا على ما اسلفناهُ مستندين في اساس كلامنا على اقوالٍ من رجال الفلسفة والعلم مما يجدر بالتأمل والاعتبار ولا سيما ما يجلُّ شأنهُ لدى المهذبين والوالدين القائمين بالتخصيص على تربية الصغار

قال العلامة الاستاذ وليم جمس مؤلف كتاب (السيكولوجيا) الكبير بعد تفصيل عملي طويل في شرائع نشوء العادة وتأثيرها في الطباع والاخلاق من الوجه الطبيعي ما نصهُ

" لا جرم ان جهنم ذات الوقود التي يُنذر بها شرارُ الناس في المعاد والخلود ليست باشد

عذاباً من العقاب الذي نذوقهُ في هذه الدار الدنيا لما ترتكبهُ من مخالفة شريعة الطبيعة والحيد عن نهجها القويم من حيث نشوء الطباع والاخلاق واكتساب الملكات والعادات. فلو تأتى للأحداث ان يعلموا انهم لن يكونوا في مستقبل العمر سوى مجموع عادات لتنبهوا الى مسالكهم قبل ان يقسو منهم العود فيستحيل تقويم ما اعوجَّ من اخلاقهم وهيهات ان يردَّ ما فات. فكل امرىء ينسج بيدهِ الثوب الذي يرتديهِ ويبني المنزل الذي يأويهِ. فاقلُّ فضيلةٍ ينشأ عليها او رذيلةٍ يعتادها تنقش فيهِ اثرًا لا يمحى مدى العمر حتى تنزل معهُ الى القبر لانها تكون قد جبلت في عناصر الدم وحيكت مع نسيج العضلات وركبت منها كريَّات الاعصاب. فعلى مبدإ الطبيعي يصبح الكبر لعنة البشرية برشفهِ الكأس وراء الكأس وفي شريعة الطبيعة ينشأ ملاك الانسانية بكرمة بعد مكرمة يديها للناس. وبناموس الطبيعة يقوم السامي المحتك وينبغ العالم الكبير والفيلسوف الشهير وما هي الاَّ ساعة في العمل تتلو ساعةً حتى تنسج الشقة من خيطٍ بعد خيطٍ و يبنى الجدار من حجرٍ فوق حجر. فلا يسبقنَّ لوهمِ شابٍّ انهُ بالطفرة يعلو المراتب و يرقى المناصب في الخطة التي ينشأ عليها والغاية التي يسعى اليها. فاذا سعى في سبيل الجدِّ قدمًا بعد قدم فلا بدَّ ان يحصد يومًا ما زرع ويجني ما غرس بمالا يعقب الندم حتى اذا ما فتح عينهُ ذات صباح ورأى السعد خادمهُ والمجد يحفُّ بهِ بين اقران يسودهم واخوان يعلوهم أيقن ان الطبيعة وفتهُ حقهُ الذي اسلفها وردَّت لهُ الامانة التي اودعها وتجلَّى لهُ يومئذٍ ان اقلَّ امرٍ اجراهُ في اعمالهِ هادئًا في معملهِ منفردًا في خلوتهِ بعد ان قضى لهُ الحكم الصحيح اصبح فيهِ ملكًا لا يزول وعادةً لا تحول

ثم ان الفيلسوف سبنسر قد احال تربية الاولاد الادبية في غالب احوالها على تأديب الطبيعة وعقابها ناعيًا على المؤدبين اجمعين مسالكهم القديمة الشائعة في تأديب الولد بالقصاص الذميم العقيم لانهم يعدلون بهِ عن منهج الطبيعة القويم وافاض في اثبات هذه الحقيقة تمثيلاً وبرهانًا بما لا يبقي لبليغٍ بيانًا و يضيق عن تلخيص بعضهِ مثل هذه المقالات فنجتزئ بذكر اهمِّ مبادئهِ على وجه التحصيل والايجاز فنقول

اولاً . أثبت من النواميس الكونية ان لكل فعلٍ ردًّا يعقبهُ ويساويهِ ولكل شيء اثرًا يقابلهُ ويحاكيهِ فيطلق على هذا الاثر ما يوافقهُ من الاسماء على حسب وجوه النظر والاعتبارات كالنتيجة والعاقبة والثمرة وهلمَّ جرًّا. وبيَّن بأجلى وضوح أن أمثل الطرق في تأديب الاولاد والناشئين القاء الامر لعقاب الطبيعة بقسميهِ المادي والادبي واورد على ذلك من ابسط الشواهد اليومية والبيتية مالا مزيد فيهِ لمستزيد حتى يتيقن الاب والام والمربي كافةً انهم اذا

سلبوا حق الطبيعة في التأديب جنوا على انفسهم او نفس الاولاد ضرًّا بدل النفع بل زادوا فيهم ما يبغون اصلاحهُ فسادًا على فساد بشهادة الواقع وحكم الطبع

ثم قال (اي سبنسر) خذ مثلاً حال الولد الذي لم يعتد المحافظة على ملبسهِ فيمزقهُ بالاشواك ويلطخهُ بالاوحال فاذا ضرب او أُهين وأُرسل الى الفراش عقابًا لم يرَ ذلك الاَّ ظلمًا وحيفًا فازداد اهمالاً لحال ثوبهِ بدلاً من الاقلاع عنهُ . ولكن افرض انهُ كلف اصلاح ما افسدهُ بأن يطهر لباسهُ او يرفأ ما مزَّق على ما يستطيع . افلا يشعر حينئذٍ ان هذه نتيجة طبيعية لاهمالهِ ويرى جليًّا علاقة السبب بالمسبب فيتيقن عدل هذا العقاب ؟ . ثم هو اذا لم يتعظ بحكم الطبيعة قصرت عن تأديبهِ المواعظ والزواجر . ومن لا تبصّرهُ عواقب الطبيعة فلن تردعهُ روادع الشريعة . وهذا مفاد قول العامة " الانسان لا يتربى الاَّ من كيسهِ " و" المشنوق يخاف من جرة الحبل"

ثانيًا . حقَّق الفيلسوف ان التأديب والعقاب الطبيعيّ غايةٌ في تدقيق الاحكام وفي توفية القسط والميزان على حدّ التمام . فان كان من امور الدنيا عدلٌ حقيقي فهو في عقاب الطبيعة على اصح معناهُ ففيهِ وحدهُ يحق ان يقال السن بالسن والعين بالعين بحيث لا يتحوَّر نظام ولا يتعدَّل قانون ومنهُ وحدهُ يتعلَّم المرء الاحكام في تقرير الاعمال وتقدير النتائج . فما الخائن المرذول والخامل المعوز والمدَّعي الساقط والاحمق الخاسر والخبيث المخذول الاَّ شهود ناطقة على عدل العقاب الطبيعيّ ما فهم للعدل معنى عند العقلاء

ثالثًا . أبانَ ان الناس اجمعين في شرعها سواء فلا ترضى بغير الحق بديلاً ولا تراعي في حكمها خليلاً . فاذا ما احتمى الشيخ الجاهل تحت كنف الشيخوخة في الاحكام الادبية فأكرم شيبتهُ الناس قالت لهُ الطبيعة ان الحق اشيخ منكَ والشيخ احقُّ ان يلام فانفذت فيهِ سهم قضائها حتى تخفض كرامتهُ وتزول مهابتهُ وهذه مغبَّة الجاهلين . واذا الشابُّ المغرور انبعث في ميدان المعصية والفرور فعاف العفاف وطلَّق الحياء فقد لا يظهر فيهِ عقاب الطبيعة للحال ولكنَّك لا بدَّ ان تقرأ يومًا احكام الطبيعة بادية على محيَّاهُ من شحوب وهزال وارتجاف واختلال فاذا لم يحتفظ بنعمة الشباب ولا حرص على جدَّة الاهاب فخالف سنَّة الزواج الطبيعيّ وراح يتنقل في الحبّ تنقل الاغياء يتسرَّى من كنٍّ الى كنّ ويلتقط من ذاك الحب التقاط الادنياء فقد لا يصحو من خمارهِ ولهوهِ ولا تنقشع سحائب زهوهِ حتى ينجلي سواد الغرور عن مفرقهِ ويطلع فيهِ صبح المشيب . فيأوي الى مخدعهِ وقد تخاذل عنهُ اخوان الصفاء وادبرت في وجههِ فيان الغناء فريدًا لا يؤنسهُ جاهٌ ولا مال فقيدًا كما فقدهُ البيت الذي غذَّاهُ والوطن

الذي ربَّاهُ ميتاً بصورة حيّ بعد ان وهن العظم منهُ وماتت في صدره الآمال

كذا قل لمعاشر النفاق والرياء والمكر والدهاء من اهل السياسة من المتولّين احكام البلاد والقائمين على رعاية الطوائف والشعوب وتدبير شؤُون العباد فاذا خدع احدهم نوَمةُ الاغرار الى حين او اعتلى الآخر من ذروة المجد اعلى عليين فما خدع الطبيعة بخلّب مكرهِ ولا حجب عنها دخائل سرّهِ وشرّهِ اذ لا اقرب لديها من تمزيق الحجاب وهتك الاسرار يوم يعمّ الويل ويطمّ السيل والطبيعة تجري باقدار

رابعاً . اوضح ان الطبيعة اقوى المؤدّبات على اقناع المعاقب باستحقاق العقاب حتى يرضى بهِ ويرتاح اليهِ ذلك لان الطبيعة لا يداخلها هوًى او غرض من عواطف الحكام والمؤدبين فلا غيظ يدفعها على الافراط ولا ضلع يميل بها الى التفريط على ما هو معلوم . فلكم رايتَ من وخيم العواقب في عقاب البشر حتى المأخوذين بعوج الحكام وقصر النظر وان نُبلت الغاية وحسن القصد . حتى ليسخط الولد على الوالد ويقوم التلميذ على الاستاذ وتفسد المودّة وتقطع علائق الحب بين الانسباء والمحبين . والمشهور من طباع الخلق انهُ ما وقع لنفس العاقل المنصف من الطيبات شيءٌ كاحكام العدل يتوقعهُ لنفسهُ ويتقاضاهُ لاخيهِ ويرضاهُ لذويهِ كأنَّ ارتياحهُ الى العدل ادلُّ ما بقي من آثار الصلاح على مذهب الجمهور . فلذا نرى انهُ كلما سمت مناقب ذوي الكمالات وقربت من ذلك الاصل الشريف كرهوا من نفوسهم ما لا يراهُ الاعداء الالداء فبثوا ما في صدورهم من امارات الظلم وعادوا على ذواتهم باشد اللوائم والتقبيح . الاَّ ان اكثر ما يكون ذلك اذا أتى عن طريق العقاب الطبيعي . ثم ان الانسان قد لا يكتفي بالحاضر المشاهد من هذا العقاب بل ما وقف على جنايةٍ تاريخية سالفة او سمع عن قبيحةٍ بعيدة منهُ الاَّ ندب حظهُ كيف لم يخلق في عصرها او يشترك في امرها وتمنى لو عادت بهِ الايام فتقمصتهُ حكماً عادلاً اوكان آلةً بيد الطبيعة ليشفي النفس بانزال القضاء ويمتع ناظرهُ بمشهد ذلك العقاب . كل ذلك توحي بهِ شريعة الطبيعة وتلقيهِ اليهِ وقلَّما رضي بسواها وازعاً اورضخ لغيرها شارعاً

هذا وما صحَّ من حلول العقاب الطبيعي بالافراد يقع ايضاً في الامم والجماعات . فكم من أمةٍ بعد ان نالت حظها من مراقي النجاح استهوتها عزّة الفتح وانبساط الجناح فاستنامت الى المفاسد ولاذت الى اكناف الترف والجمود وراحت تتشأم من الايام وتعاند سنة الزمان فما لبثت ان كالت الطبيعة لها بالكيل الذي كالت وأَدالت منها ما أَدالت . وكأيّ من بيتٍ كان العلم والادبُ اساسهُ والصلاح نبراسهُ فلما عدل بنوهُ عن هذا المنهاج واستضاء وارثوهُ بغير

ذاك السراج تقوّضت اركانهُ وهوى بنيانهُ بل عفّت اطلالهُ كأنهُ ما كان . ويا اسفي على خلفٍ ورثوا نعم السلف من كنوز الصحة والمجد والمال فاضاعوها وباعوها بابخس الاثمان . هذا اذا لم يكن الوالدون انفسهم قد تعدّوا شريعة الطبيعة باسرافٍ او اتلاف فاورثوا بنيهم ما اورثوا من مهلكات النفوس والاجساد حتى حق عليهم حكم الطبيعة ان ما زرعهُ الاباء حصدهُ الابناء

كذا البلاد التي لا يعلم قضاتها من العدل سوى الاسم ولا يدركون من الحق سوى الحرف والرسم يحسبون الناس انعاماً سواماً يجزّون منها الصوف ويحتلبون الالبان قد لا تنتبه الى مصير الوبال والدمار الاّ يومَ لا تبقي لهم سنة الوجود زرعاً ولا ضرعاً ويجرّد فيهم سيف العدل الطبيعي فيجتثّهم اصلاً وفرعاً

وحاصل القول انك ترى آثار العقاب الطبيعي ماثلةً على قائمة كل بيت للمسرفين ناطقة على باب كل محكمة للغاشمين منقوشة على جبين كل مستبد مستهين قائمة على كل خراب تنادي بارفع الاصوات ان هذه عاقبة المفسدين . فحسب العاقل ان يتعظ بما هو منقوش على لوح قلبهِ مسطرًا على صفحات الارض والسموات وليهنأ الصالح الحكيم ان الشريعة والطبيعة في الخير على وفاق لأن " البر يرفع شأن الامم وعار الشعوب الخطيئة " وما كان ربك مهلكاً لقريةٍ الاّ كان أهلها ظالمين

دمشق الشام متري قندلفت

المرّيخ وسكّانهُ

تدلُّ الدلائل المتعددة على ان المريخ اكثر الكواكب التي يسهل رصدها شبهاً للارض . وربما كان بين الاجرام السموية ما هو اشدُّ شبهاً بالارض منهُ ولكن منها ما لا نعرف عنهُ الاّ القليل مثل الزهرة ومنها ما لا نعرف عنهُ شيئًا البتة . وليس ينكر ان المشتري وزحل يضاهيان المريخ في ظواهرها التي تدهش رصّدها من الفلكيين ولكنهما يختلفان عنهُ كلّ الاختلاف في هذا الشأن . فجوُّ المشتري من اغرب الاجواء في ظواهرهِ وتقلبات سحبهِ . وزحل يمثل لنا نظامًا عجيبًا لم يكن ليخطر على البال لولا وقوعهُ تحت عياننا

اما المريخ فان وجه اهميتهِ مشابهتهُ للارض مشابهة تحملنا على الظن انهُ كرة مثل كرتنا فان قطرهُ ٤٢٠٠ ميل وحجمهُ سبع حجم الارض وثقلهُ بالنسبة الى حجمهِ اقلُّ من ثقل الارض